حكاية المتاجر والمبغاء

يروى جلال الدين الرومى (المتوفى 672 خجيرية = 1273 ميلادية) فى منظومته الكبرى المسماة بـ المثنوى (30 ألف بيت من الشعر) حكاية طريفة عن المتاجر والمبغاء ، خلاصتها أن تاجرا من بلاد الفرس قرر السفر إلى الهند، وقيل سفره عرض على خدمه أن يطلبوا ما يرغبون فيه ، وراح كل منهم يحدد للتاجر طلبه من هنالك. وكان لديه ببغاء جميل المريش، حسن الصوت فسأله :

— وما هديتك التى تريد أن أحضرها لك من الهند؟

— لى فقط رغبة بسيطة، وهى أن تبلغ ببغاوتها الطليقة فى الهواء سلامى وأشواقى ، وتحديثهم عن وجودى فى هذا القفص!

سافر المتاجر إلى الهند، وحين شاهد مجموعة من الببغاوات تطير وتمرح في فضاء الصحراء توقف وأبلغها السلام، وأدى الأمانة ، لكنه فوجئ بسقوط أحدها ميتا من سماع قوله . تعجب المتاجر، وراح يؤنب نفسه على أنه نقل مثل هذا الكلام الذى أدى إلى موت طائر مسكين، لكن كثرة مشاغل السفر غطت على أسفه وحزنه ،

وعندما رجع بالمهدايا إلى خدمه، ذكر للبغاء ما حصل مع زملائه من ببغاوات الهند، وكيف أن أحدها سقط ميتا بمجرد سماع رسالته.. حينئذ ، اصفر لون الببغاء ، وبرد جسمه ، وسقط فى قفصه من شدة التأثر. وبعثا حاول المتاجر أن يسعف الببغاء، لكنه أصبح إلى الموت أقرب، فأخرجه من القفص ، ووضع جانبا على الأرض. وهنا دبت الحياة من جديد فى الببغاء ، فاندفع بسرعة إلى أقرب شجرة، وحط على أعلى غصن فيها..

حدث ذلك وسط دهشة المتاجر، الذى راح يسأله :

— ما هذا الذى وقع لك؟

فقال الطائر:

— لقد ألهمتني حكايتك عن زملائى ببغاوات الهند، وسقوط أحدها ميتا أمامك ، بأن أفعل نفس الشئ لكى أتخلص من سجن القفص الذى وضعتنى فيه ، وأنعم بالحريه التى منحها الله .

ثم لوج للمتاجر :

— الوداع أيها السيد الطيب، فقد كنت لطيفا معى وحررتنى من القيد والمظلم. وأنا الآن ذاهب إلى الوطن ، وسوف تصبح ذات يوم.. حرا مثلى!

الحكاية بالمطبع رمزية . وهي مثل كل الحكايات التي يرويها جلال الدين الرومي في منظومته المليئة بالحكم والمواعظ الصوفية والأخلاقية، كما أنها لا تخلو من البعد الواقعي أو العملي الذي يمكن أن يبصر الإنسان بأفضل التصرفات في مواجهة مشكلات حياته اليومية، والمواقف الصعبة التي يوضع أحيانا فيها.

فما الذي يمكن أن نخرج به من تلك الحكاية البسيطة والرمزية ؟ أولاً: أننا أمام تاجر ، طيب القلب ، شهم الأخلاق ، يحسن معاملة خدمة، فيعرض عليهم قبل سفره أن يطلبوا ما يرغبون فيه لكي يحضره لهم من رحلة بعيدة في بلاد الهند ثانياً: أن المتاجر يتميز بحس جمالي راق، فهو يقتنى في منزله ببغاء ، ذا صوت جميل، وألوان زاهية، وكلاهما يبعث في النفس الراحة والسعادة. ثالثاً: أن الببغاء رغم وجوده في هذا الجو المترف ، لا يشعر بالسعادة، لأنه يفترق الحرية، التي جعلها الله من صميم حياة الطيور. رابعاً: أن هذا الببغاء يتميز بذكاء فريد، فقد استطاع أن يحصر طلبه من سيده في نقل رسالة سلام وتحية إلى زملائه ببغاوات الهند، التي تعيش حرة طليقة . خامساً: أن الرسالة عندما بلغت تلك الطيور البعيدة، أدركت على الفور مغزاها وفهمت الغرض منها ، فتطوع أحدها بالموت أمام المتاجر، لكي ينقل هذا المشهد المؤثر جداً.. إلى طائره الحبيس في منزله سادساً: أن الطيور في هذه الحكاية قد استطاعت أن تتواصل فيما بينها، على الرغم من بعد المسافة، كما نجحت تماما في إرسال واستقبال شفرة محددة، مع أن حاملها نفسه لم يفطن إلى مضمونها أو دلالتها سواء عند أخذها من صاحبها ، أو توصيلها للطرف الآخر. سابعاً أن الببغاء المحبوس في بلاد فارس قد استفاد من تجربة زملائه في بلاد الهند، فقام بالتظاهر بالموت أمام صاحبه، لكي يتم إخراجه من القفص. ثامناً وأخيراً: أن الحرية تستحق أن يبذل الدراغب فيها كل الوسائل الممكنة حتى يحصل عليها. ولأن الطائر ضعيف، فقد استخدم وسيلة التلطف والمداراة ، بينما توجد وسائل أخرى عديدة، تصل إلى حد التضحية بالروح من أجل الحصول على الحرية !!